اسم ولقب الباحث: بن عبد السلام بوبكر

المؤسسة التي ينتمي إليها: جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي

التخصص الدقيق: الآداب العالمية الدرجة العلمية: أستاذ محاضر قسم "ب"

الهاتف النقال:0658619546 البريد الإلكتروني : ben.boubakeur@hotmail.fr

محور المداخلة: صورة الشرق في ظل الهيمنة الاستعمارية (مستشرقون وسمت جهودهم بالموضوعية).

عنوان المداخلة: الاستشراق وتجسير الهوة بين الشرق والغرب

ملخص:

لطالما عد الاستشراق ظاهرة ثقافية صرفة، وحيزا للتواصل مع الأخر والالتقاء به، ، ولكنه لم يبرأ أيضاً من التأثيرات الذاتية والتوجهات الأيديولوجية والأطماع الاستعمارية، جاعلة منه معول هدم وأداة من أدوات الهيمنة والسيطرة الإذلال، وباب منه استطاعت الامبراطوريات الاستدمارية أن تجد لها موطأ قدم خمس أصقاع الأرض.

وبالعودة إلى الجانب المضيئ من الاستشراق، يمكننا رصد العديد من الكتابات العلمية المنصفة التي انتصرت للحقيقة العلمية والتاريخية ليس إلا، ولعلى من بين هؤلاء المستشرق الفرنسي " أنطوان غالون " Antoine Galland الذي يدين له القارئ الأوروبي والفرنسي تحديدا في اطلاعه على حيثيات ألف ليلة وليلة، بعد أن نالت ترجمة هذا الأخير لهذا العمل الأدبي الخالد شهرة لا تضاهى، ومن ثمة اسهامه في ربط خيوط التواصل بين الشرق والغرب بعضها ببعض.

الكلمات المفتاحية:

الاستشراق، الشرق، الغرب، الهوة.

Résumé:

L'orientalisme a toujours été considéré comme un pur phénomène culturel, et un espace de communication avec l'autre et de rencontre avec lui, mais il n'a pas non plus été débarrassé des auto-influences, des orientations idéologiques et des

ambitions coloniales, ce qui en a fait une pioche à abattre et un outil de domination, contrôle et humiliation, et une porte par laquelle des empires destructeurs ont pu fixer leurs pied dans cinq régions de la terre.

S’agissant du bon côté de l'orientalisme, nous pouvons surveiller de nombreux écrits scientifiques justes qui ont triomphé pour la seule vérité scientifique et historique, et peut-être parmi eux se trouve l'orientaliste français "Antoine Galland", à qui le lecteur européen et français doit spécifiquement pour sa connaissance des mérites des Mille et Une Nuits, après La traduction par ce dernier de cette œuvre littéraire immortelle a acquis une renommée incomparable, et ainsi sa contribution à créer un espace de communication entre l'Orient et l'Occident.

Mots clés:

Orient, occident, orientalisme, fosset.

1 - تمهيد:

عرفت الدراسات الاستشراقية طفرة نوعية واهتماما لافتا عند النخب الاوروبية والغربية عموما، خاصة أثناء فتح الأندلس وغداة سقوطها، فغدت مادة وموضوعا للكثير من الأبحاث والدراسات، فظهرت تبعا لذلك مدارس خاصة عهد إليها تدريس علوم اللغة العربية والتراث العربي الاسلامي وتحقيق المخطوطات وكل ما يتصل بالحضارة الشرقية فكرا وفلسفة وتاريخا وأنثروبولوجيا، وإن كان صنف آخر من الباحثين يرجع أول ظهور لهذه الدراسات إلى الحقبة الإغريقية مع " هيردوت " الذي كان اول من تكلم عن أصول وعادات وتقاليد وسلالات أكثر من خمسين شعبا، فيما ترى فئة أخرى من الباحثين وعلى رأسهم " رائد أمير عبد الله " الذي "أرجع نشأة الاستشراق إلى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما احتك المسلمون بغيرهم من نصارى ويهود"1، ويذهب فريق ثالث إلى أن الحروب الصليبية (1096 - 1291)،كانت هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرف على المسلمين.

وحتى وإن لم يقع اجماع حول بداية ظهور الاستشراق، فإنه يمكننا أن نسجل بوضوح أن أول ظهور للاستشراق لم يتأخر عن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، حيث كان النشاط العلمي للمسلمين في الأندلس إبان فتحهم لها مصدر ولادة الاستشراق، وباعث على انطلاقته، وهو ما سبق الاشارة إليه.

2 - الاستشراق: قراءة في المصطلح:

جاء في معجم لاروس Larousse أن الاستشراق هو عبارة عن جملة من المكتسبات المعرفية ذات الصلة بالأمم الشرقية (لغاتها، معتقداتها، ثقافاتها، تاريخها،...)، أما المستشرق فهو مَن يقوم بدراسة الشرق أو تدريسه، أو الكتابة عنه مهما كان تخصّصه.

يقول أحمد حسن الزيات: "يُراد بالاستشراق اليوم، دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسيطة كان يُقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لصلتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح"2

لقد كان للحضارة الاسلامية في الاندلس أثر طيب على أوروبا والغرب عموما، من خلال ما صدرته ته من شتى تخصصات العلوم، إلى المبادئ والقيم الانسانية، إلى وسائل وطرائق الحكامة الراشدة، فيما يذهب الباحث أحمد عبد الحميد غراب مذهبا أكثر تشددا في تعاطيه مع مفهوم الاستشراق بقوله إنه عبارة عن مجموعة " دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون من أهل الكتاب بوجه خاص، للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخاً، ونظماً، وثروات وإمكانات بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي."3، إن هذا المفهوم للاستشراق، وإن سلط الضوء على الجانب المظلم الذي يحمله الاستشراق، مفهوم به شطط، لأنه لا يمكن بحال من الاحوال مثلا جمع كل المستشرقين في سلة واحدة ومن ثمة الحكم عليهم بالجملة، فمن هؤلاء من كانت لهم اسهامات قيمة في دراسة الشرق تاريخا وتراثا ومعتقداتا وحضارة، وقد شهد على ذلك الكثير من عدول هذه الامة ومنصفيها.

3 – " أنطوان غالون " Antoine Galland وسحر ألف ليلة وليلة.

أضحت سرديات " ألف ليلة وليلة " في نسختها الفرنسية من أكثر النصوص إلهاما لمبدعي العالم، سواء في الأدب أو مختلف الفنون الدرامية، وقد يعود الفضل في نقلها إلى اللغة الفرنسية إلى المستشرق الفرنسي

أنطوان غالون الذي كان له شرف السبق في نقل هذه القصص إلى اللغة الفرنسية ابتداء ومن ثمة إلى باقي لغات العالم، ويرجح الباحثون والمتخصصون في شأن هذه الليالي أن هذا الكتاب وضع بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، أما اسم الكتاب فلم يعرف بعد.

يعود تأليف هذه القصص إلى بدايات القرن السادس عشر، وقد تم تأليفها على مراحل تماما كما كان الشأن في تأليف الإلياذة أو الأديسة للشاعر الإغريقي الضرير "هوميروس" ، أما عن محتواها ، فقد ضمت " الليالي" الكثير من القصص والحكايا الواقعية والخيالية على السواء، البعض منها عربي خالص والبعض الآخر هندي بحسب الكثير من الروايات.

4 - الليالي جسرا للتواصل مع الشرق:

يعتقد العديد من الباحثين أن ثمة دور مفصلي قامت به تلك البلاد الاوروبية التي وطأتها أقدام المسلمين الفاتحين كشبه الجزيرة الإيبيرية وصقلية والجنوب الايطالي، لقد اتصل المسلمون في هذه الأصقاع بالاوروبيين بشكل مباشرعبر هذه الجسور، لهذا كانت عملية التأثير والتأثر كبيرة، وقد كان هذا التواصل المباشر سببا في انتقال الليالي الى هذه البقاع وتأثيرها فيها، ولقد وصف أويسترب أهمية هذا التأقير بقوله " فيما عدا الكتاب المقدّس لا توجد سوى كتب قليلة حققت انتشاراً واسعاً وطافت العالم بأرجائه مثل مجموعة "ألف ليلة وليلة"، لأنّه يكاد لا يوجد في معظم الدول المتقدّمة من لم يقرأ هذه المجموعة بسرور مرّة واحدة على الأقلّ في حياته"4

كان لقصص "ألف ليلة وليلة" تداعيات ايجابية في نفوس المتلفين الغربيين، وبقدر ما أثارت هذه القصص من اعجاب بقدر ما طرحت من تساؤلات أثارت في القارئ الغربي " الرغبة في معرفة الشعوب التي انتجتها، وحثتهم على الأسفار إلى بغداد ومصر والشام وإيران... ويكفي أن نلقي نظرة في كتاب جان ماري كاري لنطلع على عدد الكتاب والمسافرين المتزايد، الذين زاروا الشرق الإسلامي، في القرن الثامن عشر، واعترفوا أن مدن "الليالي" كانت من أهمّ العوامل التي دفعتهم إلى القيام بهذه الأسفار، على الرغم من التكاليف المالية الباهظة"5

مثلت الترحمة الفرنسية " لليالي " لأنطوان غالون **Antoine galland** بالرغم من كل ما قيل عنها، منعرجا مفصليا وعلامة فارقة قي العلاقة بين الشرق والغرب، لقد كانت بمثابة الجسر الذي ربط بين عالمين مختلفين وبين حضارتين متباينتين، لقد أسهم هذا التواصل بين الضفتين في تقريب الرؤى والقضاء على الكثير من الأحكام المسبقة التي كان يحملها كلاهما على الآخر، وقد " برزت ترجمة "الليالي" في الوقت المناسب لتغيّر الكثير من الحقائق. فمع ظهورها، أبدى القرن الثامن عشر في أوروبا اهتماماً متميزاً بكل مايتصل بالشرق، وهو اهتمام لا يمكن مقارنته بالعصور السابقة، فلأوّل مرّة في تاريخ أوروبا، تتغير صورة المسلم من وثني لا أخلاق له، إلى صاحب مبادئ، وقيم، شجاع، وقوي على مواجهة الأعداء: ولأوّل مرّة، ينظر

الأوروبي إلى الإسلام على أساس "أنه دين عقلاني، بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية، دين وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس في المجتمع" 6

5 - الليالي وإعادة تشكيل وعي الغرب بالشرق:

لقد كرس الكثير من الكتاب والأدباء الرحالة صورة نمطية عن الشرق، صورة غاية في العجائبية والغرائبية، بعيدة كل البعد عن الحقيقة، فالشرق بالنسبة للغربيين قابع في الأذهان، في تصوراتهم المتناقضة عنه، لا عنه كما هو في الواقع، "فبمقدار ما يثيره الشرق من تصورات أسطورية حول عالم موغل في القدم، جذاب وساحر وغريب، وفيه نشأت الحكمة الإنسانية الأولى، في حضارات الهند والصين ومصر وغيرها، فإنه أيضاً مبعث الجهل والتخلف والعدوانية"7.

بنى المستشرقون معرفتهم بالشرق اعتمادا على مصادر مشكوك في أمانتها وصدقيتها، ككتابات الأدباء الرحالة وتقارير البعثات التبشيرية، وعلى مانقله المسافر العادي لهذه البلاد.

استقرت هذه الصورة النمطية عن الشرق وأهله في أذهان الغرب لعقود طوال، فالشرق لم يكن ليعني لهم سوى الشعوذة والسحر والقصور والكنوز، وظلت تصوراتهم عن الشرق على هذه الحال حتى بداية القرن السابع عشر، " فلقد بدأ الغرب يقترب تدريجياً من الشرق الإسلامي لأسباب سياسية واقتصادية ويبدو أن الأوروبيين، في هذه الفترة، أدركوا أن الأتراك أصبحوا خطراً سياسيّاً وعسكريّاً قادراً على تهديدهم، لذلك أسرعوا إلى إقامة صلات معهم، ولقد شرعت فرنسا -فعلاً- ترسل دبلوماسييها ومبعوثيها إلى الشرق الإسلامي، وكانت في الوقت نفسه، تستقبل سفراء الدولة العثمانية، و مبعوثيها، و تبني لهم سفارات ضخمة تشمل أحياء كاملة أحياناً" 8.

استمر هذا التقارب بين الغرب ممثلا بالدول الاوروبية على وجه التحديد والشرق ممثلا بالدولة العثمانية آخذا طابع الندية، فصار الغرب بعيون الاحترام والتقدير للشرق وأهله، وقد كان لقوة الدولة العثمانية وسطوتها الأثر البارز في هذا التحول في العلاقات، و "لقد كان على الأوروبيين انتظار منتصف القرن السابع عشر لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ علاقاتهم بالشرق. ففي هذه الفترة ظهرت الشركات الشرقية التي أسسها الوزير الفرنسي المشهور كولبير (1683-1619)، ونشطت البعثات الكاثوليكية التبشيرية، وتمّ التبادل الدبلوماسي والاقتصادي بين أوروبا وتركيا على مستوى رفيع... وفي المجال الفنّي، بدأت المواضيع الغرائبية تتسرب إلى الرسم والأدب، ففي عام 1670 كتب موليير مسرحيته الشرقية "البورجوازي المهذب"، التي تدور أحداثها في تركيا... وفي عام (1672) ألف راسين مسرحيته "بجزيت" باذلاً جهداً كبيراً في إغنائها بالتفاصيل الشرقية"9

6 – " الليالي' عاملا مؤثرا في الأجناس الأدبية الغربية:

برجع الكثير من الباحثين مسألة تقسيم الادب إلى أرشطو، فيما يرجع البعض الآخر منهم هذا التقسيم إلى أستاذه أفلاطون، الذي قسم الادب إلى الادب الدرامي، فالادب الملحمي فالأدب الغنائي، وقد تبنى هذا التقسيم فيما بعد أرسطو، ويكاد يجمع المشتغلون بمجال نظرية الادب على أن الأجناس الادبية هي تلك " القوالب الفنية العامة للأدب، ولذلك ينظر النقاد منذ أفلاطون وأرسطو إلى الأدب بوصفه أجناسا أدبية تختلف فيما بينها، لا على حسب مؤلفيها أو عصورها أو مكانها أو لغاتها حسب بنيتها الفنية، وما تستلزمه من طابع عام، ومن صور تتعلق بالشخصيات الأدبية أو بالصياغة التعبيرية الجزئية التي ينبغى ألا تقوم إلا في ظل الوحدة الفنية للجنس الأدبي، وهذا واضح كل الوضوح في القصة والمسرحية والشعر الغنائي بوصفها أجناسا أدبية، يتوحد كل جنس منها على حسب خصائصه مهما اختلفت اللغات والآداب والعصور التي ينتمي إليه"10

كان " لليالي " أثر كبير في مختلف الأجناس الأدبية الأجنبية. وقد تجلى هذا التأثير بشكل كبير في الكتابات القصصية لدول الضفة الشمالية من البحر المتوسط بصفة خاصة، كفرنسا واسبانيا وايطاليا، " ومن النصوص الأجنبية التي تأثرت بهذه الحكايات، نشر توماس هوب في عام 1819 رواية بعنوان "أناستازيس: مذكرات يوناني"، وفيها استقى عوالم ألف ليلة وليلة السحريّة والغرائبيّة... وتأثّر الأديب والفيلسوف مونتسكيو في كتابه "الرسائل الفارسية" بحكايات ألف ليلة وليلة في تصويره للولائم ولعادات الشرق. أمّا فولتير فقد كان من أكثر الأدباء الذين تأثروا بهذه الحكايات، ويظهر هذا التأثير واضحاً في رواياته "صادق" و"سميراميس" و"أميرة

بابل"، وقصة "العالم كيفما يسير... أمّا قصة روبنسون كروزو ورحلات كاليفرز الإنجليزية الشهيرتان فهما مأخوذتان في بنية أحداثها وخيالاتها من بنية حكايات السندباد البحري ورحلاته السبع صوب جزر العالم البعيدة ومرافئه"11، لقد كان لهذا العمل الأدب العظيم بالغ الاثر في مختلف بقاع العالم وفي شتى الأجناس الأدبية سواء كانت رواية أوقصة أو شعرا أو قطعا مسرحية " ولم يقتصر تأثير ألف ليلة وليلة على القصة والرواية فحسب، بل تعداه إلى أنواع الفنون كافة. ففي المسرح نجد أن المسرحيتين الأوروبيتين "علاء الدين"، و"حلاق اشبيلية" تتناصان بشكل واضح وكبير مع حكايتين من حكايات ألف ليلة وليلة وهما "مزين بغداد" و"علاء الدين والمصباح السحري". أمّا المسرحي الإسباني لوبي دي فيجا، فقد كتب مسرحية تبدو كأنها نسخة عن حكاية "تودد الجارية إلى الخليفة هارون الرشيد"، سمَّاها "الجارية تيودور"12

كما وكان " لليالي " تأثير واضح قي الكتابات القصصية الألمانية، فكانت " قصّة **هرفيرز ميتز** وهي أنشودة فعال أنشئت في نهاية القرن الثاني عشر، وقصّة "الدوق إرنست" وقصّة "إيسلودة وإيسهاد"، وقصّة موريس فون كراون التي كتبت شعراً باللغة الألمانية الوسيطة"13

لم يقتصر تاثير " الليالي " بالبيئات المحيطة والقريبة من موطنها، بل تعداه إلى اماكن بعيدة وصلت حد الصين، يقول المستشرق الصيني " شريف شي سي تونغ " " إن بعضاً من حكايات ألف ليلة وليلة يدرس في المدارس الابتدائية والثانوية الصينية، بالإضافة إلى الجامعات، وخاصة في كليات الآداب والتاريخ والعلوم الإنسانية في الصين. وقد تولى هو شخصياً تدريس حكايات السندباد البحري وأسفاره لطلاب شعبة الماجستير بجامعة الدراسات الأجنبية في بكين، حيث يبدي الطلاب إعجاباً شديداً بهذه الحكايات ".14

لقد تمكن المستشرقون من حيث يشعرون أو لا يشعرون من أن يستفزوا عقول النخب المسلمة ويحعلوها تنتبه أكثر لمسألة الحفاظ على التراث وتحقيقه، والذودعن الدين والتعريف به، ورد الشبهات التي يثيرها غلاة المستشرفين، الشئ الذي أنشأ حركة فكرية دؤوبة وحيوية، لم تكن لتظهر لولا وجود هذهالظاهرة الاستشراقية.

7 - خاتمة:

إن الاستشراق وإن كان تيارا علميا وفكريا اختص في دراسة الامم الشرقية على اختلاف مللها ونحلها لغة ودينا وثقافة، من خلال أفكار اتسم معظمها بالتعصب ، والرغبة في خدمة الاستدمار، وتنصير المسلمين خاصة، فإنه قد ارتبط في جميع مراحله ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسات الكنسية التنصيرية، كما وارتبط أيضا بالنزعة الاستدمارية التي تهدف إلى التوسع والهيمنة والسيطرة والسطو على ثروات الشعوب ومقدراتها، "وذلك ببث روح الدونية فيهم ، وبيان أن دينهم مزيج من اليهودية والنصرانية ، وشريعتهم هي القوانين الرومانية مكتوبة بأحرف عربية ، والنيل من لغتهم ، وتشويه عقيدتهم وقيمهم ، ولكن بعضهم رأى نور الحقيقة فأسلم وخدم العقيدة الإسلامية، وأثر في محدثيهم، فبدأت كتاباتهم تجنح نحو العلمية ، وتنحو نهو العمق بدلا من السطحية"15.

لقد وظف الكثير من الباحثين والمتخصصين في هذه التيمة مؤلف "الاستشراق" للناقد الأمريكي ذي الأصول الامريكية، إدوارد سعيد، كأداة للهجوم على المستشرقين دون أي تمييز بينهم، فلطالما وجدوا في أفكار هذا الأخير مادة لتصفية حساباتهم ليس فقط مع الاستشراق؛ وإنما مع الحداثة المعرفية ككل. ولطالما استخدموه للهجوم على الغرب؛ كل الغرب، غير مفرّقين بين الوجه الحضاري الايجابي – على ندرته - للغرب، والوجه الكولونيالي التوسعي الإمبريالي، الذي سعى إلى زرع الشكوك في كل يحمله الشرق من تاريخ وحضارة وثقافة وديانات.

إنه لمن الخطأ المنهجي وضع المستشرقين جميعا في سلة واحدة ومن ثمة الحكم عليهم بالجملة، لقد كان من بين هؤلاء من كرس حياته كلها من أجل التقريب بين الشعوب والحضارات بالتركيز على القواسم المشتركة، لقد كان للمستشرقين دور مهم في إخراج الكثير من كتب التراث وتحقيقه وتبويبها ونشرها، كما أسهم المستشرقون أيضا في التعريف بالثقافة الاسلامية من خلال تسويقهم لها داخل الدوائر الفكرية والادبية

والتاريخية الغربية كما كان الحال مع عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون" **Gustave le bon** في كتابه " حضارة العرب " واللساني الألماني "كارل بروكلمان " Carl **Brockelmann** في كتابه " تاريخ الأدب العربي " وعالم المخطوطات ومترجم " ألف ليلة وليلة " أنطوان غالون " **Antoine Galland** وغيرهم.

8 - المصادر والمراجع:

1 – رائد أمير عبدالله، المستشرقين الألمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربية الاسلامية، مجلة كلية العلوم الاسلامية، المجلد الثامن، العدد1/15، 2014، ص4.

2 – أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر. القاهرة، مصر، ص512.

3 - أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، ط2، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص 7.

4 - كاترينا مومسن، جوته وألف ليلة وليلة، تر: أحمد حمو، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، 1980، ص14.

5 - شريفي عبد الواحد، ألف ليلة وليلة في الغرب،https://www.startimes.com/f.aspx?

6 – المرجع نفسه.

7 - حسن مدن، الشرق المتخيل، https://www.alkhaleej.ae/ يوم2022/09/19 على الساعة13س14د

8– شريفي عبد الواحد، ألف ليلة وليلة في الغرب، المرجع السابق.

9 –المرجع نفسه.

10 - عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر،مصر، 1992، ص 25

11– محمد عبد الرحمن يونس، حكايات ألف ليلة وليلة تتمازج في ثقافات الأمم والشعوب، يوم/2022/09 على الساعة 22س30د https://www.alarabiya.net/qafilah

12 – المرجع نفسه.

13- https://elhayaahnews.com/archives/10519 أثر "ألف ليلة وليلة" الشفوي في أوروبا طـــارق رضـــــــوان

15 – محمد عبد الرحمن يونس، حكايات ألف ليلة وليلة تتمازج في ثقافات الأمم والشعوب، المرجع السابق.

14 - عبدالعزيز بن سعد الدغيثر، الاستشراق.
والمستشرقينhttp://www.saaid.net/Doat/aldgithr/29.htm le 18/09/2022 à 22h47mn